في خصائص اللسان العربي
مبدأ الاقتصاد اللغوي أساس لغة الاختصاص

عمار ساسي
جامعة بليدة

مقدمة:

يمكنك أن تشبه الكلمة التي يستقبلها سمع الإنسان باللقمة التي يستقبلها جهاز الهضم لديه، والكلمة في الحق نوعان – كلمة يستقبلها بشغف وشوق فتفيده خبرا جديدا كان السامع له في غاية الانتظار.وكلمة ترسل خارج السياق لم يكن ينتظرها فيمجها السمع مجا. ويلفظها كما يلفظ الجسم اللقمة الزائدة و يلفظ البحر الجثة الميتة الهامدة ذلك أن الأولى جاءت وفق مقتضى الحال وأن الثانية أتت خارج سياق الحال.فكذلك كان حال اللقمة التي يستقبلها جسم الإنسان فهي إمّا محيية وإمّا مميتة قاتلة إن كانت زائدة على حجم الاستيعاب وقدرة الاستهلاك. فهذه وتلك شبه بشبه. كما يمكنك أن تقابل اللغة التي يتخاطب الناس بها، بالمال الذي يتبادلونه بينهم لينفع بعضهم بعضا، فإن وظف فيما يصلح فنفع كان خيرا وحسنة . وإن لم يوظف قطعا كان كنزا ممقوتا وبخلا شائنا.

وإن وظف خارج الإطار المطلوب، كان إسرافا مقيتا، وجرّ على صاحبه السيئة، فكل شيء عند الله بمقدار.

– كل هذا يؤكد ضرورة معرفة الوظيفة الأساسية للغة وهي اتصال الناس بعضهم بعضا.

وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى ذلك صريحا في قوله: " مما يعلم ببداءة العقول أن النّاس إنّما يكلم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده".(1)

مواصفات لغة الاختصاص

أتصوّر لغة الاختصاص قائمة على المواصفات التالية:

1- انسجام في الصوت:

2- الإبانة في المفردة.

3- الاقتصاد في التركيب

وأحدد لغة الاختصاص، بأصوات بمفردة فتركيب في حقل لفائدة، وإذا عبرنا بصيغة لغة الاختصاص، فإن ذلك يفيد من جهة أخرى وجود لغة عامة ومن غير اختصاص كما يفيد أنها لغة لا يفهم ولا يمسك بمعانيها إلاّ الخاصة من أهل الحقل، كما أن اللغة العامة يفهمها عامة الناس، لكن الذي يجب إدراكه اللحظة هو أن بين اللغتين بنية تركيبية وخطابية واحدة ووحدات إفرادية مختلفة، ومتميزة في لغة الاختصاص.

والانسجام الصوتي: هو تواؤم مجموعة وحدات صوتية بائتلاف وتكامل وظيفي في تشكيل المفردة للمعنى.

وقد جاء في ماد (س ،ج، م) في الكلام خلوة من التعقيد وبعد عن التكلف وسهولة تركيبه وسهولة ألفاظه.(2)

والمتأمل في ظاهرة الانسجام يلحظ حضورها الأساس في الكون والحياة وفي كل الكائنات صغيرها وكبيرها، وكل هذا يقود إلى الاستقرار والتآلف مع ما يحيط بها على نحو معين وخاص، سواء أكان هذا في المستوى المادي أم كان في المستوى المعنوي. ففي الأوساط المادية مثلا نلاحظ الحار والبارد يلتقيان فيتمازجان ويصيران إلى وسط بين هذا وبين دلك، فيكون مزيجا يميل إلى

الاعتدال بأخذه من كلا الوسطين، وكذلك نجد المواد المتفاوتة الكثافة يمزج بعضها ببعض، فإذا هي مادة تختصر الفوارق وتوحد الفوام. والانسجام مع الوسط المحيط يكون بتوفر خصوصيات معينة ومشتركة بين الطرفين فنجد مثلا أسماك المياه الملحة تنسجم مع الوسط المائي المالح وتعيش فيه في استقرار تام، في حين يتعذر عليها ذلك في الوسط المائي العذب الملائم لنوع أخر من الأسماك. والأمر نفسه يصدق على مختلف السلوكات الإنسانية في بناء المجتمعات المتجانسة. والإنسان بطبعه الاجتماعي ميال إلى التفاهم والوفاق مع غيره من أفراد المجتمع الذين يعشون معه في نفس البيئة مؤثرا ومتأثرا فيتصف في كثير من الأحيان بصفاتهم ويكتسب طبائعهم والعكس صحيح .... وهو ما يقود إلى مجتمع منسجم متسق في أفكاره ونزعاته وتوجهاته.

وربما نظرة إلى نحلة في صحراء دانية ثمارها تقرأ معنى الانسجام حيّا.

وربما نظرة إلى نحلة على زهرة إلى عسل مصفى فيه شفاء للناس تقرأ منها أية الانسجام حقيقة.

ولك أن تقرأ معاني الانسجام من خطاب القرآن الكريم في قوله تعالى: "أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ..... ".(3)

وقوله تعالى: " وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات واسلكي سبل ربك ذلك يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ....." (4)

وليقس ما لم يقل. وبعد هذا فهل الانسجام إلا تآلف عناصر جزئية وتكامل وظائف، لصناعة أثر مستقر.

ويقابل الانسجام في هذا السياق مصطلح (التنافر) ويجلى هذا المعنى بوضوح قوله تعالى: " كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ".(5) ومعنى هذا أنه

إذا كان الانسجام ينتهي إلى الحياة القارة، فإن التنافر ينتهي إلى الموت المجهزة وبضدها تعرف الأشياء.

قال ابن دريد في الجمهرة :" اعلم أن الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت، لأنك إذا استعملت اللسان في حروف الحلق دون الفم ودون حرف الذلاقة كلفته جرسا واحدا، وحركات مختلفة ، ألا ترى أنك لو ألفت بين الهمزة والهاء والحاء فأمكن، لو جدت الهمزة تتحوّل هاء في بعض اللغات لقربها منها، نحو قولهم (أم والله): (هم والله). وكما قالوا في: أراق هراق الماء، ولو جدت الحاء في بعض الألسنة تتحول هاء. وإذا تباعدت مخارج الحروف حسن وجه التأليف. (6) وقال: " أعلم أنه لا يكاد يجئ، في الكلام ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة واحدة ، لصعوبة ذلك على ألسنتهم وأصعبها حروف الحلق، فأما الحرفان فقد اجتمعا مثل(أخ) بلا فاصلة.واجتمع في مثل (أحد) و (أهل) و (عهد) و(نخع) ، غير أن من شأنهم إذا أرادوا هذا أن يبدأوا بالأقوى من الحرفين ويؤخر الألفين كما قالوا، وزل، ووتد، فبدأوا بالتاء مع الدال، وبالراء مع اللاّم ، قذق التاء والدال فإنك تجد التاء تنقطع بحرس قوي ونجد الدال تنقطع بجرس لبين، وكذلك الراء تنقطع بجرس قوي، وكذلك اللام تنقطع بغتة وبذلك على ذلك أيضا إعتياص اللاّم على الألسن، أقل من اعتياص الراء وذلك للين اللاّم فأفهم .(7)

قال الخليل: لولا بحة في الحاء لأشبهت العين، فلذلك لم يأتلفا، في كلمة واحدة وكذلك الهاء، ولكنهما يجتمعان في كلمتين لكل واحدة منها معنى على حدة، نحو قولهم: حيهلا. (8)

وجاء في عروس الأفراح للشح بهاء الدين: (ويشبه استواء تقارب الحروف وتباعدها في تحصيل التنافر استواء المثلين اللذين هما في غاية الوفاق، والضدين الذين هما في غاية الخلاف، في كون كل من الضدين والمثلين لا يجمع مع الآخر

فلا يجتمع المثلان لشدة تقاربهما، ولا ضدين لشدّة تباعدهما، وحيث دار الحال بين الحروف المساعدة والمتقاربة فالمساعدة أخف).(9)

قال ابن جني في هذا السياق: " التأليف ثلاثة أضرب: أحدهما تأليف الحروف المساعدة وهو أحسنه، وهو أغلب في كلام العرب ". (10)وقد فصّل الأضرب الثلاثة بقوله:

– الضرب الأول: تأليف الحروف المتباعدة وهو أحسنة وهو الأغلب في كلام العرب.

– الضرب الثاني: تأليف الحروف المتقاربة بتضعيف الحرف نفسه وهو يلي القسم الأول في الحسن الضرب الثالث: تألف الحروف المتجاورة وهو دون الاثنين الأولين فإما رفض البتة وإما قل استعماله.(11)

وإذا ثبت أن مستويات حسن تأليف المفردة العربية متفاوتة، فإن ذلك سينتج عنه قطعا تفاوت في الخفة والفصاحة. ومن بين معايير فصاحة اللفظ المفرد عند اللغويين العرب خلوصه من تنافر الحروف المورث للثقل.

وفي هذا الإطار أحصى صاحب عروس الأفراح اثني عشر تأليفا للكلمة الثلاثية محددا أحسنها انسجاما وخفة الأداء، مع بيان أثقلها، وهذا انطلاقا من حركية الانتقال عند نطق الكلمة. في التالي:

التركيب الأول: الانتقال من الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى مثل: ع د ب.

التركيب الثاني: الانتقال من الأعلى إلى الأدنى إلى الأوسط مثل: ع م د.

التركيب الثالث: الانتقال من الأعلى إلى الأدنى إلى الأعلى مثل: ع م هـ.

التركيب الرابع: الانتقال من الأعلى إلى الأوسط إلى الأعلى مثل: ع ل هـ.

التركيب الخامس: الانتقال من الأدنى إلى الأوسط إلى الأعلى مثل: م ل ع.

التركيب السادس: الانتقال من الأدنى إلى الأعلى إلى الأوسط مثل: ب ع د.

التركيب السابع: الانتقال من الأدنى إلى الأعلى إلى الأسفل(الأدنى) مثل: ف ع م.

التركيب الثامن: الانتقال من الأدنى إلى الأوسط إلى لأدنى مثل: ف د م.

التركيب التاسع: الانتقال من الأوسط إلى الأعلى إلى الأدنى مثل: د ع م.

التركيب العاشر: الانتقال من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى مثل: د م ع.

التركيب الحادي عشر: الانتقال من الأوسط إلى الأعلى مثل: ن ع ل.

التركيب الثاني عشر: الانتقال من الأوسط إلى الأدنى إلى الأعلى مثل: ن م ل.(12)

يقول بهاء الدين: " إن أحسن هذه التراكيب الأول فالعاشر فالسادس، وأما الخامس والتاسع فهما سيان"(13) أي أحسن هذه التراكيب وأكثرها استعمالا ما انحدر فيه من الأعلى إلى الأوسط إلى الأدنى.

وعند ملاحظتنا لحركية الانتقال في الكلمة نجد أحوالها تختلف من هيئة إلى أخرى. وهو ما يجعل المردود الاقتصادي لأداء البنية المفردة مختلفا من واحدة إلى أخرى.

وفي هذا السياق- وفي محاولتنا الوقوف وقفة علمية عند كل تركيب- يمكن أن نرصد أسس المفاضلة بين هذه التراكيب، بحسب حركية الانتقال وأثرها المباشر في الاقتصاد اللغوي في ثلاثة أس من منطلق شكل الانتقال ومنحاه.

1- إن أحسن التراكيب ما كان فيه الانتقال من أقصى إلى أدنى، على مراحل، دون الرجوع عكسيا، أي الانتقال في جميع المراحل يكون موافقا لاتجاه خروج الهواء. (14)

2- ثم يليه ما كان فيه الانتقال في الاتجاهين (من أقصى إلى أدنى، ثم العكس في الوقت نفسه). وأسهل التراكيب في هذا، هو ما كان فيه الانتقال في المرحلة الأولى من أدنى إلى أقصى (صعود) ثم العودة من

أقصى إلى أدنى في المرحلة الثانية. (أي في حدور) لأن الانتقال في المرحلة الأولى في صعود عكس خروج الهواء يساعده عامل هو كون الجهاز الصوتي في راحة، أما الانتقال الثاني يساعده عامل الانحدار لأنه موافق لاتجاه خروج الهواء. (ت: 6، 7، 8، 9، 11). وأصعبها ما كان عكسيا في المرحلة الثانية (ت:2، 3، 4، 10، 12).

3- التدرج في الانتقال يدخل في اعتبار الخفة والثقل. فالانتقال المتدرج (أقصى، وسط، أدنى)، (أدنى، وسط، أقصى)، (أدنى، وسط، أدنى)، (أقصى، وسط، أقصى).

(ت: 1، 4، 5، 8، 11، 12). يكون أخف من الذي لا توجد فيه مرحلة توقف وسطى (من أقصى إلى أدنى مباشرة أو العكس). (ت:2، 3، 6، 7، 9، 10). (15)

وظاهرة الانسجام الصوتي في المفردة نلح عليها في لغة الاختصاص لأنها تنتج الإبانة على مستوى التخاطب والخفة على مستوى الجهاز حين النطق بالمفردة. وكلاهما يمثلان سمة اقتصادية جليلة في اللسان انطلاقا من انسجام أصوات المفردة. وقد يظهر لك هذا بجلاء حين تجمع أصواتا متنافرة في مفردة ما وتلحظ أثرها القاتم على مستوى الإبانة ثم ثقلها البائن على مستوى النطق ثم نفور السمع منها لغياب الإبانة وحضور الثقل.وبذهاب الانسجام يذهب الاقتصاد، ودائرة الانسجام المقصودة، في هذا المقام لا تتوقف حدودها عند تآلف الأصوات فقط.

وإن كان هذا أساسا لا خلاف فيه، وإنما تتجاوزه إلى صناعة أثر الإبانة وخفة النطق وسهولة الوصول إلى السامع.

وبعد هذا أحسب أن انسجام أصوات المفردة في هذا كانسجام عناصر الآلة حين تؤدي وظيفتها متكاملة أجزاؤها بالتمام.

الإبانة في المفردة:

الإبانة هي قدرة اللسان (اللغة) على استيعاب أكبر مساحة معاني الموجودات في الوجود بأكبر مساحة ألفاظ في النطق.

حيث يحدد لكل معنى دقيق لفظ أدق يبين عن معناه ويمتاز بينه وبين غيره من الألفاظ الأخرى.

والإبانة في مفردة لغة الاختصاص تطلب أن يكون لكل لفظ معنى محدد خاص به.

كما ترفض تعدد المعاني في المفردة الواحدة، لأن ذلك ينتج تداخلا واضطرابا يذهب الإبانة.

كما ترفض تعدد الألفاظ للمعنى الواحد لأن ذلك ينسف مبدأ الاقتصاد الذي يعرفه اللغويون: " ببذل أقل مجهود لتحصيل أكبر مردود" ويوقع اللسان في مرض التضخم الذي مازال إلى حد اللحظة يقرأ خطأ على أنه سمة ثراء وغنى في اللسان.

كما ترفض حضور معنيين متضادين في اللفظ الواحد لأن ذلك يورث غموضا واضطرابا ومخالفة لسنّة اللغة.

و من أساسيات الإبانة في المفردة خروجها من زحم الاشتقاق وموافقتها الميزان الصرفي للسان العربي، في انسجام صوتي محكم، فبذلك تستقيم على خطي الفصيح والصحيح.

لقد جاءت إبانة اللسان العربي في القرآن في قوله: (السان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين).(16) ويقابل الإبانة في الآية مصطلح العجمة: والعجمة هي تعذر اللسان في توصيل المعنى بأدق لفظ وأقل جهد.

فيضطر إلى صياغة التركيب للإبانة على المعنى، وهذا في منطق لغة الاختصاص غموض.

والإبانة بهذا المفهوم هي مقياس تقدم لسان على لسان، والعجمة هي مقياس تأخر لسان على لسان وانعدام المعاني في الوجود تتبعه اللغة في عدم الوجود وإذا كان الغموض عقبة في الوصول إلى المتلقى، فإن الإبانة هي عتبة للوصول إلى السامع فيعرف مراد المتكلم ومقصوده.

وقد أوجز الجرجان مفهوم الإبانة في قوله: توضع الأسماء على المسميات لتبين عن معانيها وليماز بينها وبين غيرها، وليضم بعضها إلى بعض فتشكل خطابا يفيد السامع خبرا جديدا(17).

الاقتصاد في التركيب: يجول في فكر بعضهم أنّ المقصود بالاقتصاد في التركيب هو الاختزال والاختصار والإيجاز اللذان يقابلان التطويل، وهذا خطأ شائع لا نريده ، بل ذهب آخرون إلى عدم التفريق بين المصطلحات التالية:- الإيجاز/الاختصار/الاختزال/الاقتصاد، وظنوا أنها مترادفات. ولما كانت لغة الاختصاص تعتمد ألانسجام في الصوت و الإبانة في المفردة، لزمها الأمر جبرا أن تفرق بينهما وأن تبين هذه الفوارق بجلاء لأهل النظر في الأتي:

- الإيجاز هو: إيراد الخبر بأقل صيغة ومعنى.
- والاختصار هو: إيراد الخبر بأقل صيغة ومعنى، مع الغاء أخر.
- والاختزال هو: إيراد أكثر الأخبار بأقل الألفاظ أو حشد أكثر معلومات في أقل مفردات.
- والاقتصاد هو: توازن بين المجهود والمردود. نطقا وخطا.

وإذا كان نقاد اللغة – عرفوا الاقتصاد اللغوي بـــ توازن بين المجهود النطقي ومردوده. فانه بشيء من الإبانة أقول: إن الاقتصاد اللغوي هو التزام المتكلم بمعايير (قواعد) اللسان صوتا ومفردة وتركيبا في مخاطبة السامع.

فالصوت يطلب الانسجام ويرفض التنافر والمفردة تطلب الإحكام والدقة والإبـــانة، والتركيب لا بد أن يحمل إلى السامع خبرا جديدا.

ومن هنا فاللغة هي نظام لربط الكلم ببعضها وفق مقتضيات دلالاتها العقلية، وبذلك فقط يمكن لها القيـــام بوظيفتها الأساسية كوسيلة لاتصال الناس ببعضهم و الغرض في لغة الاختصاص ليس هو توالي المصطلحات في النطق أو الكتابة، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل. فأدنى زيادة أو نقص في الخطاب قد يفسده ويخل بوظيفته.

وفي لغة الاختصاص تتعلق وحدات الجملة بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك. وكل هذا لا يحصل إلا أن تعمد إلى:

1- اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا.

2- اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الأخر.

3- أو تتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفة أو تأكيدا له أو بدلا منه.

4 – أو يجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالا أو تميزا.

5 – أو تتوخى في كلام هو لإثبات معنى أن يصير نفيا أو استفهاما أو تمنيا فتدخل عليه الحروف الموضوعة لذلك.

6- أو تريد في فعلين أن تجعل أحدهما شرطا في الأخر فتجيء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى.....

وحينئذ لابد من استيعاب هذه الأطر والمساحات ومعرفة ظروفها ومقتضيات أحوالها، لأنها قائمة على مبدأي الاقتصاد والاختصاص: وقد أشرنا إلى مفهوم الاقتصاد من قبل: وفي هذا السياق يصير الباحث في لغة الاختصاص لا يأتي المعنى إلاّ من الجهة التي هي أصح لتأديته، ولا يختار له إلا اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه وأتم له. ومنه فإن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة ولا من حيث هي كلم مفردة، وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك، مما لا تعلق له بصريح

اللفظ. وعلى الباحث في لغة الاختصاص معرفة أحوال الفصل والوصل بين الجمل وإدراك تميز العطف بالواو واختلاف المعنى فيه عن بقية حروف العطف. يقول عبد القاهر الجرجاني: " اعلم أنه إنما يعرض الإشكال في الواو دون غيرها من حروف العطف، وكذلك لأن تلك تفيد مع الإشراك معاني مثل أن الفاء توجب الترتيب من غير تراخ. و(ثم) توجبه مع (تراخ). و أو تردد الفعل بين شيئين وتجعله لأحدهما لا بعينه، فإذا عطفت بواحد منها الجملة على الجملة ظهرت الفائدة، فإذا قلت: (أعطاني فشكرته) ظهر بالفاء أن الشكر كان معقبا على العطاء ومسببا عنه، وإذا قلت: خرجت ثم خرج زيد أفادت (ثم) أن خروجه كان بعد خروجك، وأن مهلة وقعت بينهما، وإن قلت: يعطيك أو يكسوك دلت (أو) انه يفعل واحدا منهما لا بعينه. وليس للواو معنى سوى الإشراك في الحكم الذي يقتضيه الإعراب الذي اتبعت فيه الثاني الأول، فإذا قلت: جاءني زيد وعمرو لم تفد بالواو شيئا أكثر من إشراك عمرو، في المجيء الذي أثبته لزيد والجمع بينه وبينه. ولا يتصور إشراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع الإشراك فيه. وإذا كان ذلك كذلك ولم يكن معنى في قولنا: (زيد قائم وعمرو قاعد) معنى تزعم أن /الواو) أشركت بين هاتين الجملتين فيه- ثبت إشكال المسألة) (18).

وعلى الباحث في لغة الاختصاص معرفة كيفية ارتباط السؤال بالجواب، وهذا أمر مهم للغاية لا مناص منه في هذا المقام المتخصص.يقول الإمام الجرجاني: أعلم أن السؤال إذا كان ظاهرا مذكورا في مثل هذا كان الأكثر أن لا يذكر الفعل في الجواب، ويقتصر على الاسم وحده، فأما مع الإضمار فلا يجوز إلا أن يذكر- الفعل-. وتفسير هذا أنه يجوز لك إذا قيل: (إن كانت الرياح لم تعفه فما عفاه؟) أن تقول: من حدا بهم وساقا، ولا تقول: عفاه من حدا. كما تقول في جواب من يقول: (من فعل هذا؟) (زيد)، ولا يجب أن تقول: (فعله زيد)، أما

إذا لم يكن السؤال مذكورا كالذي عليه البيت، فإنه لا يجوز أن يترك ذكر الفعل، فلو قلت مثلا:

(وما عفت الرياح له محلا من حدابهم وساقا) تزعم أنك أردت (عفاه من حدابهم)، ثم تركت ذكر الفعل أخلت، لأنه إنما يجوز تركه حيث يكون السؤال مذكورا، لأن ذكره فيه يدل على إرادته، في الجواب، فإذا لم يؤت بالسؤال لم يكن إلى العلم به سبيل فاعرف ذلك) (19).

وعلى الباحث في لغة الاختصاص العلم بأن الكلام خبر وأمر ونهي واستفهام وتعجب.

و لا شك في أن الخبر معنى لا يتصور إلا بين شيئين يكون أحدهما مثبتا والآخر مثبتا له أو يكون أحدهما منفيا والآخر منفيا عنه، وأنه لا يتصور مثبت من غير مثبت له، ومنفي من غير منفي عنه. ولما كان الأمر كذلك أوجب ذلك أن لا يعقل إلا من مجموع جملة فعل واسم كقولنا: (خرج زيد) أو (اسم واسم، كقولنا: (زيد منطلق)، فليس في الدنيا خبر يعرف من غير هذا السبيل، وبغير هذا الدليل، وهو شيء يعرفه العقلاء في كل جيل وأمة، وحكم يجري عليه الأمر في كل لسان ولغة) (20)

وعلى الباحث في لغة الاختصاص إدراك قاعدة جليلة في التخاطب الخاص هي: الأمور بمقاصدها. لقد أجمع العقلاء على أن العلم بمقاصد الناس في محاوراتهم علم ضرورة) (21)

وأنه مما يعلم ببدائه العقول أن الناس يكلم بعضهم بعضا ليعرف السامع عرض المتكلم ومقصوده. (22)

ومعنى القصد إلى معاني الكلم ليس إلا أن تعلم السامع بها شيئا لا يعلمه. وليس هو أن تعلم السامع معاني الكلم المفردة التي تكلمه بها. فلا تقول: (خرج زيد) لتعلمه معنى (خرج) في اللغة ومعنى (زيد) كيف؟ ومحال أن تكلمه بألفاظ لا

يعرف هو معانيها كما تعرف. ولهذا لم يكن الفعل وحده من دون الاسم ولا الاسم وحده من دون اسم آخر، أو فعل- كلاما. فإن جعل الفعل دون ضميره، أو الاسم دون غيره لم يكن ذلك سوى صوتا تصوته فقط.

وعلى الباحث في لغة الاقتصاص ضرورة إدراك الفرق بين الإثبات بالاسم والإثبات بالفعل. وهو فرق لطيف تمس الحاجة إليه في علم التخاطب. وبيانه: أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء، من غير أن يقتضي تجدده شيئا بعد شيء، وأما الفعل فموضوعه على أن يقتضي تجدد المثبت به شيئا بعد شيء.

فإذا قلت (زيد منطلق)، فقد أثبت الانطلاق فعلا له، من غير أن تجعله يتجدد، ويحدث منه شيئا فشيئا، بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: (زيد طويل) و(عمرو قصير).

أما الفعل، فإنه يقصد فيه إلى ذلك، فإذا قلت: (زيد هو ذا ينطلق)، فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءا فجزءا، وجعلته يزاوله ويرجيه..)(23).

وعلى الباحث في لغة الاختصاص استيعاب قواعد اللسان في التركيب مع تصحيح الذي كان خطأ وتوسيع الذي صار ضيقا، ومنها أن المبتدأ لم يكن مبتدأ، لأنه منطوق به أولا. ولا كان الخبر خبرا لأنه مذكور بعد المبتدأ، بل كان المبتدأ مبتدأ، لأنه مسند إليه، ومثبت له المعنى، والخبر خبرا: لأنه مسند ومثبت به المعنى، وتفسير ذلك أنك إذا قلت: (زيد منطلق) فقد أثبتت الانطلاق لزيد وأسندته إليه، (فزيد) مثبت له و(منطلق) مثبت به.

أما تقديم المبتدأ على الخبر لفظا، فحكم واجب من هذه الجهة أي من جهة أن كان المبتدأ هو الذي يثبت به المعنى، ويسند إليه، والخبر هو الذي يثبت به المعنى ويسند. ولو كان المبتدأ مبتدأ لأنه في اللفظ مقدم مبدوء به، لكان ينبغي أن يخرج عن كونه مبتدأ بأن يقال: (منطلق زيد) ولوجب أن يكون قولهم: إن الخبر مقدم في اللفظ والنية به للتأخير محالا) (24).

وعلى الباحث في لغة الاختصاص اصطياد الفروق في التراكيب التي تبدو متماثلة وليست كذلك مثل:

1- أنت الحبيب:

2- زيد المنطلق:

حيث أن الألف واللام في خبر الأول (الحبيب) يفيد معنى الجنسية، والخبر فيها ابتدائي، وأن الألف واللام في خبر الثانية (المنطلق) لا يفيد معنى الجنسية والخبر فيها غير ابتدائي. والفرق: هو أن لك في المحبة التي أثبتها طرفا من الجنسية من حيث كان المعنى، أن المحبة مني بجملتها مقصورة عليك.. ولا يتصور هذا في (زيد المنطلق) لأنه لا وجه هناك للجنسية. إذ ليس ثم إلا (انطلاق) واحد قد عرف المخاطب أنه كان واحتاج أن يعين له الذي كان منه، وينص له عليه..)، و عليه معرفة أن شأن أسماء الأجناس كلها إذا وصفت أن تتنوع بالصفة- مثل- (الرجل) الذي هو جنس واحد إذا وصفته، فقلت: (رجل ظريف) و (رجل طويل) و(رجل كاتب) أنواعا مختلفة، بعد كل نوع منها شيئا على حده ويستأنف في اسم الرجل بكل صفة تقرنها إليه جنسية) (25).

وأن المصادر أيضا تتنوع إذا وصفت كالعلم والجهل والضرب- فإذا قلت: (علم ضروري) و'علم خفي) و(ضرب شديد وضرب خفيف)، و (جهل عميق) وجهل مركب .. انقسم الجنس منها أقساما، وصار أنواعا.(26)

كما أن المصادر تفرق بالصلات كما تفرق بالصفات مثل قولك:

- (الضرب بالسيف غير الضرب بالعصا)
- (ليس إعطاؤك الكثير كإعطائك القليل)
- (ليس إعطاؤك معسرا كإعطائك موسرا)
- (لبس بذلك وأنت مقل، كبذلك وأنت مكثر).

- وإذا قد عرفت هذا من حكم المصدر فاعتبر به حكم الاسم المشتق منه- فقولك: (هو الوفي حين لا يفي أحد) و (هو الواهب المائة المصطفاة)، وأشباه ذلك، كلها أخبار فيها معنى الجنسية..

- وفي تأكيد معنى هذه الفروق، روى عن ابن الأنبا ري أنه قال: ركب الكندي المتفلسف (وهو يعقوب بن إسحاق الكندي المترجم) -إلى ابن العباس، وقال له: إني لأجد، في كلام العرب حشوا، فقال له أبو العباس، في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال أجد العرب يقولون (عبد الله قائم)، ثم يقولون: (إن عبد الله قائم)، ثم يقولون: (إن عبد الله لقائم). فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ. فقولهم: (عبد الله قائم)، أخبار عن قيامه، وقولهم (إن عبد الله قائم) جواب عن سؤال سائل، وقولهم: (إن عبد الله لقائم) جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكرر الألفاظ لتكرر المعاني..)(27).

ويعقب الجرجاني على توظيف (إنّ) على أنها ليست جواب سائل فقط ويضيف الظن في المسؤول عنه.. (وإذا كان كذلك وجب إذا قيل إنها جواب سائل أن يشترط فيه أن يكون للسائل ظن في المسؤول عنه على خلاف ما أنت تجيبه به فأما أن يجعل مجرد الجواب أصلا فلا..)(28).

وعلى الباحث في لغة-الاختصاص امتلاك ناصية باب التقديم والتأخير في اللغة.

ومن أبين شيء في ذلك الاستفهام بالهمزة. فإن موضع الكلام على أنك إذا قلت: (أفعلت؟) فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه. وكان غرضك من استفهامك، أن تعلم وجوده. وإذا قلت (أأنت فعلت؟؟) فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو؟؟ وكان التردد فيه.(29)

وفي النفي- إذا قلت: (ما فعلت) كنت نفيت عنك فعلا لم يثبت انه مفعول، وإذا قلت: (ما أنا فعلت) كنت نفيت عنك فعلا ثبت أنه مفعول.... وهكذا ....

- فهذه وغيرها مما لم يذكر أحسبها ثوابت أساسية أولى لا بد منها لبلورة لغة الاختصاص. وأراها قواعد ذهنية قارة في المتكلم والسامع لانجاز عملية التخاطب على مبدأ الاقتصاد لأن اللسان بنية تركيبية ثابتة لها أصولها ولها مقاصدها. قال تعالى: (وهذا لسان عربي مبين)- فإن غيبت ولم يعمل بها تحولت اللغة إلى لغات، وصار اللسان ألسنا، وهذا برأينا- أمر غير سوي. لا بد فيه من نظر وتسوية.

ولغة الاختصاص- هي لغة تخاطب في أمر علمي خاص بين مختصين. ولما كان لكل لسان خصائص تركيبية مميزة في الإبانة على المعاني، اقتضى الأمر أولا فقها مركزا لخصائص التركيب في اللسان أصولا وفروعا، نقلا وعقلا، نظرية وممارسة، فلغة الاختصاص ليست مصطلحا علميا وكفى، بل هي مصطلح علمي مركز في تركيب لغوي يراعي سنن العرب في تخاطبها.

والتزام المصطلح العلمي في لغة الاختصاص، في مقابل عدم التزام سنن العرب في كلامها، يجعل اللغة الواحد لغات متباينة في الإبانة عن المعاني الخاصة، والتعدد مع عدم الالتزام يورث غموضا وصعوبة في الفهم، وبالتالي لا يحصل تخاطب بين متكلم وسامع.

هوامش البحث:

1- دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني – ص 246.

2 – معجم الرائد – جواد مسعود – ص 259 – ط 4 – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان .

3 – النمل – 60 –

4- النحل – 68 – 69.

5 – المدثر – 50.

6 – جهرة اللغة – ابن دريد – ج 1 – ص 46 – حققه بعلبكي – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان.

7 – سر صناعة الإعراب – أبو الفتح بن جني – ج 2 – ص 816 – ط 1 – 1985.

8 – الجمهرة ابن دريد –ج 1 – ص 46 .

9 – المزهر السيوطي – ج 1 – ص 193 – 194) .

10- المزهر في علوم اللغة السيوطي- ج 1 – ص 194.

11- سر صناعة الإعراب – ابن جني – ج2 – ص 816 .

12- المزهر في علوم اللغة وأنوعها – السيوطي ج 1 – ص 197.

13- نفس المرجع ص 198.

14- المزهر في عدم اللغة – الإمام السيوطي – ج 1 ص 198.

15- الانسجام الصوتي في بنية مفردة اللسان العربي وأثره في الاقتصاد اللغوي – كمال بخوش – رسالة ماجستير 2004 جامعة البليـــدة.

16 – النحل – 103.

17 – دلائل الإعجاز – عبد القاهر الجرجاني-252

18-دلائل الإعجاز-عبد القاهر الجرجاني-ص-147

19-دلا دلائل الإعجاز-عبد القاهر الجرجاني-ص-157-158

20- دلائل الإعجاز-عبد القاهر الجرجاني-ص-245

21- دلائل الإعجاز-عبد القاهر الجرجاني-246

22-ر دلائل الإعجاز-عبد القاهر الجرجاني-247

23- دلائل الإعجاز-عبد القاهر الجرجاني-115

24- دلائل الإعجاز-عبد القاهر الجرجاني-126
25- دلائل الإعجاز-عبد القاهر الجرجاني ص128
26- دلائل الإعجاز-عبد القاهر الجرجاني ص128.
27- دلائل الإعجاز-عبد القاهر الجرجاني ص 206.
28- دلائل الإعجاز-عبد القاهر الجرجاني ص 214.
29 دلائل الإعجاز-عبد القاهر الجرجاني ص 29

مصادر ومراجع البحث

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع وزارة الشؤون الدينية 1983. الجزائر.
- دلائل الإعجاز . عبد القاهر الجرجاني . دار قتيبة.
- جمهرة اللغة. ابن دريد . دار العلم للملايين ، تحقيق بعلبكي . بيروت لبنان.
- سر صناعة الاعراب , ابو الفتح ابن جني. ط1 . 1985.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، جلال الدين السيوطي ، دار الفكر.
- معجم الرائد – جواد مسعود ، دار العلم للملايين – بيروت لبنان.
- الانسجام الصوتي في بنية مفردة اللسان العربي وأثره في الاقتصاد اللغوي . كمال بخوش ، رسالة ماجستير 2004 ، جامعة البليدة. إشراف أ.د عمار ساسي.